الفصل الثاني

الحرام

١- المحور الأول : موقف أهل التفتيش من الحرام .

٢- المحور الثاني : واقع عزيزة .

٣- المحور الثالث : موقف أهل التفتيش من الغرامة بصفة عامة ، ومن عزيزة بصفة خاصة .

إذا كان "يوسف إدريس" قد وضع شخصيته في رواية (العيب) على قمة عالية من خلال

تمسكها بالقيم والمبادئ . ثم أخذت تهوي بتخليها على قيمها . فإنه عكس الوضع في رواية (الحرام) . بدأ بالشخصية في الدرك الأسفل من هوة الحرام ثم بدأ يصعد بها على درجات التطهر والتفكير والندم حتى وصلت بعد ذلك إلى مقام عظيم بالنسبة لأهل التفتيش .

ويوسف إدريس شغوف بهذا (التناقض) أو الأسلوب فبروايته وقصصه وبالأخص عكس وضع الجماعة مع الشخصية . فهما دائما على طرفي نقيض فجماعة المكتب التي تبع التصاريح تحاول أن تجذب (سناء) لتسير في تيار قبول الرشوة . وأهل التفتيش يبحثون عن تلك التي ارتكبت الجريمة التي روعت العزبة وما يجاورها من عزب .

وتبدأ الرواية حينما عثر الخفير (عبد المطلب محمد البحراوي) على الجنين أسفل شجرة الجميز ذات صباح . وأيقن الجميع بعد ذلك أنه ابن حرام . وإلاَّ لما أُلقي هكذا ؟! وكان لأهل التفتيش موقف متميز إزاء تلك الجريمة . هذه المواقف مرت بعدة مراحل :

- إنكارها وعدم تصديقها .
- الاعتراف بوقوعها .
- البحث عن الجانية .

ومعنى أن ينكر أهل التفتيش الواقعة . يدل دلالة واضحة على غرابتها وعدم إلف المجتمع لمثل هذا الحدث . هذا المجتمع الذي يعتد بتلك القيم المستمدة من الأرض . والتي تحكمه من آلاف السنين . فهي - الجريمة - شيء غير مألوف بالمرة . مقحم على عقل تلك الجماعة . حتى (فكري أفندي) المأمور لم يصدق وجود مثل تلك الجريمة . وفي هذا المكان بالذات . من خلال مولوج يدور بينه وبين نفسه (١٤) :

(ترى أيهن هي التي فعلت هذه الفعلة ؟ وترى كيف فعلتها ؟ فكري أفندي طالما سمع في القصص والحواديت عن أولاد الحرام وأحيانا كانت تبلغه فضائح مثل هذه كأخبار ليست إلاَّ عن أناس لا يعرفهم ولا يدري أشكالهم ولا ماذا يكونون وفي أعمق أغواره . وحتى لو كان قرأ الخبر في جريدة المقطم نفسها التي يؤمن بكل كلمة تقولها . فإنه كان يجد نفسه لا يكاد يصدق الخبر . لا يكاد يصدق أن أحداثا كثيرة شنعاء حرامًا مثل هتك العرض أو الحمل سفاحا ممكن أن تحدث فعلا) .

في المجتمعات الفقيرة التي تعاني من قسوة واقعها المرير . ولا تملك شيئا لتقف به أمام أنياب وأظافر ذلك الواقع ن يكون تقديرها للقيم تقديرًا عظيمًا فهي - القيم - الحصن الذي يعتصم به الأفراد من أن تنتهك آدميتهم . فلا مال ولا سلطان ولا نفوذ . والحامي الوحيد هي القيمة . والارتفاع بها وإعطائها نوعا من السلطان والنفوذ يحمي الآخرين منك . ويحميك من الآخرين . ولا يقلب هذا المجتمع رأسا على عقب من أن يُرى جدران القيم مصدوعًا ذات صباح . وتبدأ سهام الشك الحادة وطلقات الاتهام المدوية ن نصيب كل إنسان . وكل فرد يريد أن يخترق الآخرين . ليصل إلى أعماق أدمغتهم وصميم أنفسهم ليرى ويقيم شكه

واتهامه على أساس . وكان الغرابوة مستهدفين للاتهام والشك ولم يكن هناك أفضل من هذا (الاستهداف) ليعري القاص واقع الغرابوة بكل عمق وجرأة تعرية لا تدع خافية إلاَّ وعرضتها للظهور المبين .

ورفض تصديق هذه الجريمة يخفي وراءه رصيدًا هائلاً من القيم التي تحكم المجتمع . ليس فقط تمنع حدوث الحرام . بل تمنع الذهن أن يفكر في احتمالية وقوعه . حتى ولو وقع فموقف المجتمع منها يمنع أن تظهر إلى الوجود الاجتماعي وتعلن على الملأ . فالمجتمع فبإنكاره هذا يدفع الفاعل إلى الاستتار بأي سبيل من السبل .

أما ما حدث ذلك الصباح تحت شجرة الجميز فهو يؤكد على أمرين :

الأول : وجود الحرام .

الثاني : هذا الوجود معلن عنه ويتحدى إنكار الجميع .

فالمقولة التي تقول: (إذا أعلنت فاستتروا) تغلف موقف المجتمع من مثل تلك الأمور . فهو ينكر وجودها . أما إذا حدثت ووقعت فيجب ان تخفى ولا يعلن عنها لأن هذا الإعلان يخدش سلطة ونفوذ قيم المجتمع . فلتحدث . ولكن لا الفرد ولا المجتمع يعترف بها ؛ لأن الاعتراف مرحلة تالية عن الإعلان . مثل الرشوة في قصة (العيب) فالرشوة موجودة ولكن جماعة المكتب تواطئوا على إخفائها عن الأعين . لأن المجتمع وقيمه ينكرونها . هذا الإنكار أثر على الفرد وجعله يمارسها في نفس الوقت الذي يعتقد بحرمانيتها . ولكن من قال أن ما يرتكبونه رشوة ؟! ليس رشوة – في رأيهم – فالرشوة هي التي يضطلها القانون . ويطلق عليها هذا

الاسم . أما ما يمارسه (الجندي) والآخرون . فليس برشوة لأن القانون لم يضعلهم متلبسين .

فهناك مستويان للقيم :

المستوى الأول: أن يقر المجتمع قيمة . ويمنع أن تنتهك وبالتالي الإعلام عن الانتهاك ممنوع .وإن حدث فهو يقابل بالاستهجان .

المستوى الثاني : أن يقر المجتمع قيمة ألاَّ يستطيع أن يحميها من أن تنتهك . ولكن غاية ما يستطيعه منع المجاهرة بالانتهاك .

والضابط للمستوى الأول هو القانون .

أما الضابط للمستوى الثاني فهو العرف .

ولكن قد تنتهك قيمة في المستوى الأول ويعلم عنها أيضا . (١٤) (الحرام إذن موجود لدى الناس أحيانا لا يستطيعون إخفائه ولكنه أحيانا يهزمهم وينتصر على رغبتهم في إخفائه يظهر متبلورا في لقيط مسجى أو في بطن منفوخ . الحرام الذي كنت تسمع عنه يا فكري أفندي ولا تصدقه موجود وأمامك الفرصة لترى فاعلته كما رأيته) .

والرواية من ناحية حوادثها تدور حول ثلاثة محاور:

المحور الأول : موقف أهل التفتيش من الحرام ، وإنكارهم له ، ثم بحثهم عن الفاعلة ومحاولتهم إلقاء التهمة على الغرابوة لينفوا عن أنفسهم التهمة .

المحور الثاني : إلقاء الضوء على حياة (عزيزة) وواقعها المرير ، من زوج مريض مقعد وأولاده والحمل سفاحا من محمد بن قمرين وسفرها مع عمال الترحيلة ثم وضعها للجنين وقتله ومعرفة أهل التفتيش بحكاية (عزيزة) .

المحور الثالث : موقف أهل التفتيش من الغرابوة بصفة عامة ومن عزيزة بصفة خاصة ، وما طرأ من تغيير ، من إزالة العداء ، وحل محله الرثاء والإشفاق الذي جر إلى التقارب بينهما ، وزالت تلك الصورة المقززة والمزرية للغرابوة وبدأ أهل التفتيش ينظرون إليهم نظرتهم إلى أنفسهم ، وأنهم آدميون من لحم ودم ، فما هي إلا الظروف والواقع المر الذي دفعهم إلى المجئ إلى التفتيش سعيا على الخبز الجاف والنزر اليسير من الرزق .

المحور الأول:

موقف أهل التفتيش من الواقعة غريب كل الغرابة . فهم لا ينظرون إلى الحرام نظرة خارجية منعزلة عنهم . ولكن ينظرون إلى دائرة الحرام وهم داخلها وكأن الواقعة وقعت داخل بيوتهم . ومرتكبة الجرم هي الزوجة أو الأخت أو الابنة وهم إذ ينكرونه لا ينكرونه على الفاعل المجهول . ولكن ينكرونه أن يصدر من بيوتهم فقد تصور (عبد المطلب) أن الفعلة زوجته مع استحالة وقوع هذا . (٧)

(غير أن عبد المطلب لم يجر . بل وجد نفسه بعد ثوان يقهقه قهقهة عالية أعلى من أيه قهقهة أخرى أطلقها في حياته . إذ كان يضحك على نفسه فقد أدرك بطريقة ما أن ما أمامه ليس عفريتا أو شيئا من هذا القبيل ولكنه رضيع ابن حرام على وجه الدقة . وما كاد يتبين هذا حتى قهقه فقد تصور لأمر ما أيضا أن الجنين الذي يراه الآن هو ثمرة الليلة الماضية التي قضاها مع زوجته وولدته بعد أن غادرها ليستحم في الترعة ويتطهر ثم ألقت به في الطريق) .

ولأن الكل ينظرون إلى الواقعة تلك النظرة الذاتية . فالجميع أهمه البحث والعثور على الفاعلة . ليس لمعاقبتها أو لشيء من هذا القبيل . وإنما لتبرئة أهل بيته فعدم العثور على الفاعلة يجعل كل فتاة وكل امرأة هدفا للاتهام . وبدأ البحث المسعور عن الفاعلة . وألقى أهل التفتيش التهمة على الغرابوة . وتزعمهم في هذا (فكري أفندي) المأمور . فالواقعة غريبة . إذن الفاعلة غريبة أيضا . وليس من غريب إلاّ الغرابوة . (١٧) (وأشار فكري أفندي فجأة بالخيرزانة التي كانت معه أشار إلى الفضاء الكائن خلف الاصطبلات ، وقال :

- لازم واحدة من دول .

وتطلعت العيون والقلوب إلى حيث يشير وجاء الجواب من أكثر الواقفين، وكأنه فرحة البراءة :

- هم ما فيش غيرهم ودي عايزة كلام ، ودول غرابوة ولاد كلب) .

واستراح أهل التفتيش لاتهام الغرابوة ، وان كانت فكرة اتهام الغرابوة لم تنل من اهتمام (فكري أفندي) الكثير ، فهو لا ينظر إليهم نظرة آدمية بالمرة فهم – في نظره – كائنات غريبة لا تمت بصلة للآدميين ، فهم لا يستطيعون أن يخطئوا كما يخطأ الآدميون . (٣٥) ، (تعود فكري أفندي أن يراهم هكذا وهو صحيح قد افترض أن الفاعلة منهم . قال هذا للناس وذهب بنفسه وبحث خلف الإصطبل ولكنه كان يفعل هذا وكأنه يفعله من وراء عقله . فالواقع أنه بينه وبين نفسه لم يكن ليستطيع أن يتصور أن بين هذا القطيع البشري امرأة جديرة بصفة الأنثى .

كان متأكدًا أن الفاعلة منهم ومع هذا لم يكن ليصدق أن من الممكن أن توجد بين هذه المجموعة امرأة أو بنت تحمل وتلد حلالا كان أم لقيطا ، لم يكن ليصدق وكأن التي ولدت اللقيط لم تكن امرأة بل كانت رجلا ولم يسترح عقل فكري أفندي أبدا لهذا التصور فقد كان من العسير عليه أن يغير نظرته إلى الترحيلة في لحظة وكان من الصعب أن يستحيل النفر منهم في خاطره إلى امرأة أو إلى بنت تنام مع الرجال وتحمل وتنجب أطفالا . ولكن فكري أفندي كان من الصنف الذي لم يتعود قلقلة الحقائق في رأسه كثيرا قبل أن يصدقها).

ولم يسفر البحث عن شيء . فقد خرجت نساء وبنات الغرابوة بريئات من هذا الفحص والكشف ، وإن كان الأمر قد انتهى من الغرابوة . فقد ارتد ثانيا مع أهل التفتيش ، ومع شكهم في أنفسهم زاد إصرارهم على معرفة الفاعلة . (٥٤) : (أما أهل التفتيش وأناسه وقاطنوه . فالمسألة عندهم لم تمر هكذا بسهولة . وكأنك القيت بحجر ضخم في ماء راكد آسن بدأت الاتهامات والشكوك تنهال من كل صوب . حتى لم تسلم واحدة من نساء العزبة الكبيرة من الشك مع علمهم التام أنهن جميعا بريئات ولكن لابد لكل خطيئة من خاطئة ولكل جريمة من فاعلة والجريمة قد عرفت ن ترى ومن تكون الفاعلة ؟؟) .

لم يسلم أحد من الشك ، حتى (مسيحة) أفندي الباش كاتب بدأ يشك في ابنته (لندا) التي تشبه تماما فتيات ونساء العزبة ، (٥٤) : (بل أكثر من هذا بدأ الشك يزحف من بيوت الفلاحين المنخفضة إلى بيوت الفلاحين العالية . فبدأ الفار يلعب في عب مسيحة أفندي الباش كاتب ، وبدا يخاف أن يكون المحظور قد وقع والحقيقة أنه كان خائفا دائما أن يقع المحظور ن بل أكثر من هذا هو دائم الخوف من المحظور وغير المحظور) .

فهو يعرف بتلك العلاقة التي تربط ابنته بصفوت ابن المأمور ، ويعرف بحكاية الخطابات التي يحملها (محجوب) البوسطجي من وإلى لندا وصفوت ولا شيء في هذا ، لأن هذا يتم على مسمعه وعلمه وطالما يحدث هذا في العلن فلا خوف . الخوف أن يكون حدث شيء في الظلام ، وفي الظلام لا يتورع الإنسان أن يرتكب أكبر الكبائر . أما في العلن فهو على رقابة من المجتمع (٦٥) .

(الشك لم يكن مسيحة أفندي قد أحسه أبدا إلا تجاه الآخرين تجاه الفلاحين والمأمير والإدارة وكل الناس . لم يكن أبدا قد أحسه تجاه نفسه أومن في حكم نفسه تجاه عائلته ...تجاه ابنته لنده بالذات . حياتها علنية أمامه وأمام أمها وأمام الناس وحتى إشاعة رسائل العيون والنظرات والإشارات بينها وبين صفوت تكاد تكون علنية هي الأخرى . وحياتها العلنية هذه هي كل حياتها فهل من الممكن أن تكون لها حياة أخرى . حياة تزاولها مع صفوت ابن المأمور في الظلام) .

وفيما عدى مسيحة أفندى يقف أهل التفتيش عاجزين عن معرفة الفاعلة، وهذا الموقف يجعل كل امرأة هدفا . (٩٠) : (وطالما هي مجهولة فأي اتهام صحيح . وأي إشاعة قد تكون هي الحقيقة والإشاعات كثيرة والألسنة في التفتيش لا تهدأ وواضح أن الأمر سيظل هكذا إلى أن تنجلي الحقيقة) .

المحور الثاني :

وتخلت الحقيقة عن (عزيزة) وعرف فكري أفندي بأمرها أثناء مروره على الأرض وكان الريس (عرفة) قد أراحها من العمل رأفة بها مع احتساب يوميتها . وعهد بامرأة

أن تجلس معها تحت طلبلة بين أعواد النيل المزروعة حول تربيعة القطن وحينما غضب المأمور من تصرف الريس (عرفة) برر تصرفه بأن (...) ، (عزيزة أم اللقيط المقتول . وإنهم حين عرفوا هذا تستروا عليها فهي ولية ولنا ولايا وحين أصابتها الحمى رأوا أن يرقدوها في الغيط تحت طلبلة لكي يستمر أجرها ساريا . فهي غلبانة آخر غلب وتنفق على زوجها المريض وأولادها الثلاثة منه) .

وحينما رأى المأمور عزيزة والمرض ينهش في جسدها والحمى تطوق جسدها الناحل رثى لها وتغاضى عن احتساب يوميتها وهي نائمة . موقف غريب حقا يقفه فكري أفندي ومن قبله الريس عرفة بدلا من أن يستمطر اللعنات فوق رأس أجداد وآباء عزيزة يكونان أول المساعدين والمشفقين عليها . وهي في محنتها ...زوج قعيد عاجز عن شيئين . توفير الخير لها ولأولادها . وعن القيام بواجبه الزوجي . ذلك هو قدر عزيزة . فهل تستطيع مواجهة قدرها ؟

القاص لم يترك لها حرية الاختيار بين أن تواجه قدرها أو تنكص . وأنى عند المنطقة التي تستطيع أن ترى بوضوح حقيقة عزيزة وبترها بترا . فلم يضع عزيزة بين طريقين ولم يترك لها حرية الاختيار . بل وضعها على شفا جرف هاو في يوم عاصف مستمر . فكان لابد من السقوط في الهاوية . وترك سقوطها علامات

استفهام بدون إجابة . فمنذ البداية قد اتضح الطريق أمامها نحو الهاوية السحيقة فحينما ذهبت إلى أرض محمد بن قمرين للبحث عن جذور البطاطا تلبية لرغبة زوجها عبد الله أخذ منها محمد الفأس ، هنا بدأت خطوات المأساة ترتسم في وعي عزيزة ، فقد اشتهت - وهي الأنثى - الذكر ، وبذلك اكتملت خيوط السقطة في حبال عزيزة . (١١١) : (وخلع جلبابه وأخذ الفأس منها وتلفت حوله ثم انتقى مكانا ما لبث أن راح ينهال بالفأس عليه وعزيزة قد جلست غير بعيد ترقبه وتقارن بين حفرها وحفره ، والفأس في يدها هي أقوى منها وأثقل والفأس في يده هو القابض عليها هو المتحكم فيها هو الرجل . هو الرجل الذي يذكرها بعبد الله حين كان يعمل ، وتصبح له تلك العضلات الأخرى في بطن ذراعه وبلهث ليس لهث المتعب ولكنه لهث الرجل حين يعمل ، لهث منتظم قوي وقور) .

لقد تفتحت مسام كيان الأنثى فيها ، العطش للرجل في صورة (محمد بن قمرين) وهو يبحث لها عن جذور البطاطا حتى أن ما حدث بعد ذلك يعد غريبا وغير مساير لمنطق الأحداث ولكن الأمر مع عزيزة وما كانت تشعر به وتفكر فيه منطقي للغاية ، وإن عدم حدوث ما حدث في تلك اللحظة لا يمنع حدوثه في لحظة أخرى ، وعلى حدوثه من (محمد بن قمرين) لا يستبعد حدوثه من غيره . (١١٢) : (والواقع أنها لم تتبين تمامًا ما حدث بعد هذا . الأمور حدثت بطريقة أسرع من ان تدركها أو تتلافاها ، ما كادت تحاول أن تقوم حتى كان محمد إلى جوارها في الحفرة يساعدها . مرة واحدة وجدت نفسها في حضنه وقد أطبق عليها بذراعيه ليرفعها وهي وإن كانت قد ارتعشت حين أحست بنفسها في حضن رجل غريب إلاّ أن الرجل الغريب لم يكن سوى محمد الكشر الذي لا يتسرب إليه الشك .

ولكن الشك بدأ يتسرب إليها حين لم يرفعها ولم يدعها ترفع نفسها . وما كاد الشك يتسرب إليها حتى كان قد أصبح حقيقة – روعت أولا ولكنها استجمعت نفسها ودفعته وناضلت ولكنها كانت ترى أن نضالها لا فائدة منه . بل ليست تدري على وجه الدقة سر هذا الانهيار الذي أصابها حين أصبحت في حضنه تريد أن تقاوم ولكنها لا تستطيع . تستميت ولكنها يائسة تصرخ فيتجمع الناس وتصبح فضيحة ومضغة في الأفواه ؟

تسكت تعضه ؟ حتى ملابسها التي لا تحتكم على غيرها مزقها . كل ما حدث أنها ظلت تئن مذهولة مرعوبة حتى قام وشتمته ولكن مادا تفيد الشتائم . ولم يقل هو حرفا . فقط ظل ينظر هنا وهنالك . الغيط خال تماما .والبهائم والناس تروح من بعيد وعاد إليها . وهذه المرة كان يمكن أن تقوم وتحري وتضربه بالفأس . إن اضطرت . ولكنها لم تفعل – سكتت وظلت تئن أنين المظلوم الذي لا يخلي نفسه من مسئولية ظلمه) .

وكأنها كانت جوعي . ورأت طعاما ليس بطعامها . فلم تحتمل الأم الجوع والآم الحرمان . فمدت يدها بكل حرية واختيار لتأخذه . ولكن لم يكن بديل عن ذلك عندما جعلت لغرائزها هي الحكم والمتصرف فهي لحظات مرت بها لم ترفضها سوى الاستسلام والخضوع . ولكنه الاستسلام الإرادي والخضوع الممتع بالنسبة لها وهناك الجزاء الوفاق . فإن لم تستطع تحمل قدرها فلتواجه قدرًا أقسى وأمر وأشق (١١٤) : (أفظع ما في الأمر كان عبد الله . عبد الله لم يقربها من عمر ابنتها زبيدة .والناس تعلم هذا . فماذا يقول وماذا يقول الناس ؟ هو لن يقتلها فهو عاجز عن

قتلها ، والناس لن يقتلوها ، فهم لن يستطيعوا قتلها ، ولكن القتل عندها أهون من أن يعرف عبد الله ويعرف الناس) .

خطأ مصدره قسوة الواقع على الإنسان ، وعدم قدرته على تحمل هذا الواقع فهي لحظة يحاول الإنسان فيها أن يوافق بين ضعفه وقسوة الواقع ، هذا التوافق القائم على التعارض هو الخطأ ، فلا توافق بين الواقع وضعف الإنسان ، فهذان قطبان متعارضان الخط الواصل بينهما هو الألم ، ولا توافق بين القطبان ، وإن حدث فهو الخطأ - كما قلنا - خطأ مصدره جهل الإنسان البسيط بحقيقته وضاءلته ، جهله بقسوة الواقع الذي يعيشه ، هذا الجهل يدفعه إلى أن يرسم خط أمل في أن يتصالح والواقع ، ولم يدر أن في اللحظة التي يفعل فيها ذلك ، يكون قد وقع في شرك الخطأ ، وهذا لن يخفف من قسوة الواقع بل يزيده .

وفي لحظة التنوير التي مرت بها عزيزة ن أدركت سبب سقطتها بكل وضوح وجلاء ، وذلك حينما عجزت في التخلص من الجنين ، وكانت على وشك أن تفضح بين عمال الترحيلة وهي بعيدة عن زوجها وأولادها وبلدها ، (١١٨) : (وكل هذا من أجل جدر بطاطا ، لا ، كل هذا لأنها لم تقاوم لحظة تلك اللحظة ، التي صاحبتها سبعة أشهر تطاردها كاللعنة المقيمة لماذا تركته يفعل بها ما فعل ، تقول لنفسها أنها لم ترض ، ولكنها ترد وتقول : ولكني لم ارفض فليلعنني الله في كل كتاب أنزل لأني لم أرفض ، تضرب رأسها في الحائط وتقول ، كنت عارفة أنه حرام وعيب ولم تقاوميه كما يجب ، لم تصرخي وقلت الفضيحة وها قد أتت الفضيحة الكبرى انفضحي إذن يا عزيزة واشبعي فضيحة فلولا أنك ضعفت لحظة لما حدث ما حدث ، لحظة ضعف واحدة منها ، هي التي قاومت طبيعتها حين رقد عبد الله

رقدته التي لم يقم منها . قاومت الليالي التي كانت تريده فيها ولا تستطيع . أيكون هذا هو السبب في أنها ضعفت تلك اللحظة التي أخذها فيها محمد بن قمرين) .

الصراع المعكوس :

فإذا كان الصراع عادة يكون بين اختيارين . ويكون الخف من نتيجة الاختيار . فلم يكن هنا أي خيار . وبالتالي لم يكن ثمة خوف . فالصراع المعكوس هنا ألغى حرية الاختيار . وألغى كذلك الخوف الذي يظهر طبيعة الشخصية فالصراع ها قائم على سؤال (لم حدث ما حدث ؟) وبدل من حرية الاحتيار كان التسليم لما حدث . وبدلا من الخوف من النتيجة . كان ثمة الندم على ما حدث فالضحية هنا - عزيزة- لا تملك تغيير شيء . فلم يستيقظ وعيها على وجودها إلاَّ وقد شكل على تلك الصورة . التي تدفعها إلى تدمير وتحطيم هذا الوجود . (فهي لم ترض . وكذلك لم ترفض) فلتكن الإرادة بيدها من اجل التخلص من هذا الوجود فسعت سعيا إلى إغراق نفسها في ماء الخليج .

والإدراك هنا أو لحظة التنوير التي مرت بها الشخصية . أتت كالفيض الفجائي بدون إرهاصات . فإذا كانت الشخصية مسطحة تتقبل تأثيرات الواقع الخارجي بدون أي مقاومة فلا معرفتها بأن ما فعلته حرام دفعتها للمقاومة وخوفها لم يدفعها للمقاومة . وحاجتها كأنثى لم تقاومها . ونتيجة لهذا الوجود السلبي الخاضع المستسلم أثمر ثمرة الحرام . فلحظة الوعي بكل هذا كانت كرد فعل تبدأ السعي نحو التخلص من هذا الموجود عقابًا له عن تلك الثمرة أو النتيجة المعرضة للقبح وللشرع . أو لأنه أثبت عدم صالحيته للبقاء . وليس هذا الحكم صادرًا

من الخارج . بل هو حكم داخلي صادر من أعماق الموجود . وتلك لحظة يصل فيها الوعي إلى قمته . أن يستصدر الموجود أو الإنسان من داخله حكما بالإعدام على وجوده . ويسعى إلى تنفيذ هذا الحكم . وهذا يفسر سعي عزيزة المتكرر إلى إلقاء نفسها في الخليج . (١٥٩) : (وأسلم التشنج عزيزة إلى نوبات هلع مفاجئ إذ بدأت تقوم بغتة من نومتها صارخة وتنطلق جارية إلى الخليج القريب وتقذف بنفسها فيه بملابسها وكأنها تريد غطفاء نار مشتعلة فيها) .

سعي دؤب إلى تدمير الذات ن حينما لا يجد الموجود إلا ذاته الأثمة فيستدير إليها بكل قوة وعنف . انتقاما من الذات المذنبة . وفي نفس الوقت تكفيرًا عن الأثم . (١٦٣) : (إذا أفاقت من غيبوبتها لا تكاد تفتح عينيها وتقول لها أم الحسن : أزيك يا ختي دلوقتي حتى تدب على صدرها بكلتا يديها وتقول : يا لهوي . ثم تأخذ في لطم خدودها وتمزيق ثيابها ولحمها بأظافرها رغم كل مجهودات جارتها ومن يتصادف مروره أو وجوده في محاولة شل حركتها وتكتيف يديها فلا تزيدها محاولات إيقافها إلاَّ ثورة وهياجًا ولا تكف عن شريق نفسها إلاَّ حين تهوي مرة أخرى في سراديب الغيبوبة) .

وجود تدنس وفسد . ولا طريق إلاَّ إعدامه . وأي محاولة لمنعه من تنفيذ هذا الحكم هو تعضيد لهذا الفساد . وفي نفس الوقت يقابل بمقاومة شديدة من قبل الموجود . وإذا كانت عزيزة تشعر بعملها بأنه ورم خبيث يؤرقها ليلا ونهارا فقد سعت منذ البداية إلى التخلص من ذلك الورم الخبيث وعجزت وانتحر عليها

واستمد ذلك الورم الخبيث كيانه من جسدها . وحينما أصبح في متناول يدها قتلته لأنه يمثل لها شيئين :

أولا : انه حرام في حد ذاته . وهذا بعد عقائدي .

ثانيا : سبب لها فضيحة بين عمال الترحيلة . وهذا بعد اجتماعي .

وقد استراحت بعد أن تخلصت من هذا الموجود المادي المتمثل في الجنين وهي المرحلة التي تعقب التخلص من شيء شاق لاستقبال شيء اشق وأمر (١٢٢) : (واستيقظت مع الأنفار في الفجر . ومع شعاعات الشمس الأولى بدا لها أن الهم قد انزاح عن كاهلها إلى الأبد . وأنها أصبحت طليقة حرة تخلصت دون أن يشمت فيها أحد أو يعيرها أحد من الورم الخبيث الذي كان يوردها حتفها زبدا لها الصباح جميلاً جدًا . ويبدا لها أن كل شيء سوف يسير كما أرادت تماما وكان الله معها) .

استراحت بعد الولادة . تخلصت مما كان يعيش داخلها ويسمم وجودها ولعلت أحشاؤها محتويات الورم . تلك العملية أحدث أبعادًا وتأثيرات أعمق وأشمل لدى عزيزة . فهي وإن تخلصت منه وقتلته إلاّ أنها حملت حملاً آخر هو امتلاء كيانها بالذنب . حمل آخر . من نوع آخر . وأصبحت حبلى بالندم والحسرة والمرارة والعار . وقد شعرت أنها بحاجة إلى ولادة من نوع آخر . لتتخلص من هذا الحمل المختلف . في المرة الأولى تخلصت من الجنين . وهو الوجود الفعلي الذي استمد وجوده من الوجود الرئيسي . أما في تلك المرة تريد أن تتخلص من الذنب . لعلها تشعر بالراحة التي شعرت بها بعد عملية الولادة الأولى .

فذهبت إلى مكان الولادة الأولى على حافة الخليج . وتحت شجرة الجميز ومسكت بفرع الصفصاف وتقمصت كل حركات ومشاعر الولادة الأولى . وإذا كانت عملية الولادة الأولى تمت في الخفاء وفي الظلام وبعيدا عن أعين الناس لأن الحرام كان يتنفس ويتحرك . فإن الولادة الثانية تمت في عز الظهر . وعلى الملأ ؛ لأن تلك الولادة الرمزية نوع من التطهر والتكفير . وكل هذا يدفع الإنسان غلى التسامي والعلو . ولابد أن يتم هذا في وضح النهار . لأنه إعادة للوضع السليم للشخصية بعد أن أخذت وضعا شاذا وخطأ وحراما .(١٦٥) :

(وفي الظهر . في عز الظهر تلك الفترة التي تقف فيها الحياة تمامًا ويئوب الناس إلى غداء يسلمهم إلى غفوة لا يستيقظون منها إلا في طراوة العصر . في الظهر فتحت عزيزة عينيها فجأة وكأنها لم تكن نائمة وانفرجت شفتاها وطلت من ابن الريس عرفة الصغير أن يذهب ويملأ لها الكوز الفارغ في تلك اللحظة فوجئت أم الحسن بعزيزة تعتدل وتقفز جالسة ثم تطلق صرخة عالية مدوية ما لبثت أن أعقبتها صرخات هائلات مدويات وقبل أن تستطع أم الحسن أن تدرك أو تعي ما يحدث وقفت عزيزة وهدمت الطليلة وما لبثت أن انطلقت تجري ناحية الخليج وتصرخ وبلا وعي تبعتها أم الحسن وهي تجري هي الأخرى وتصرخ وتستغيث بالناس مخافة أن تكون عزيزة قد انتوت أن تلقي بنفسها في الخليج . كما كانت تفعل . وعلى صرخاتها جاء الناس من كل مكان . من العزبة من الجرن . من فوق ماكينة الدراس . جاءوا هالعين يرون ما هنالك . وقالت لهم أم الحسن :

ألحقوها ح ترمي روحها في الخليج . وجرى الناس يحاولون منعها ولكنها انهالت عليهم عضا ورفسا ونشب أظافرها بطريقة مجنونة متوحشة لم يملكوا معها

إلاّ التراجع . ولكنها لم تلق بنفسها في الخليج انطلقت تجري حتى وصلت إلى نفس المكان الذي وجدوا فيه اللقيط والذي كانت لا تزال فيه آثار الدماء السوداء الجافة) .

وبين دهشة الملتفين حولها وذهولهم جلست عزيزة القرفصاء على حافة الخليج وكأنها تتهيأ للولادة وانطلقت من فمها صرخات متواليات وكأن الطلق اشتد عليها ثم بحثت بيدها حتى عثرت على عود الصفصاف الذي احترق نصفه والذي كان لا يزال في مكانه من الحافة وأطبقت عليه بأسنانها واتخذت هيأتها طابعا جنونيا مدعورا وهي تضغط على العود وتنشب أسنانها فيه . وظلت تضغط بتوحش وتضغط وهي تدمدم بأنين محتبس كاسر والدم يسيل من فمها وأسنانها فيلوس العود وعيناها حمرتان متوهجتان وشعرها منكوش ن ويدها تعتصران طين الخليج فتحيلانه إلى تراب حاف وفجأة . وكأن شيئا طق داخلها . تباوت ممدودة على حافة الخليج) .

وبذلك تخلصت عزيزة من وجودها . غراديا بعد أن اكتمل وعيها باستحالة الانسجام بينها وبين الوجود .

التعتيم الشخصي :

الحدث الرئيسي في الرواية (الحرام) ونظرة أهل التفتيش إليه . و (عزيزة) مصدر ذلك الحدث والفعل . إلا أننا لم نر عزيزة وأخذت الشخصية صاحبة الحدث الرئيسي وما ألقى على حياتها قليلاً جدًا من مساحة الرواية . ولا ينقص ما يتطلع إليه القارئ لمعرفة الشخصية . ومع التعتيم الذي تعمده القاص وفرضه على

الشخصية ووضعها في منطقة الظل . إلا أنه استطاع أن يخلق التعاطف الحاد بينها وبين من حولها حتى بينها وبين القارئ . هذا التعاطف لم ينشأ إلاَّ من خلال عملية التسامي والتكفير والتطهير التي بدأت (عزيزة) تدخل في خضمها بعدما ألمت بها حمى النفاس ، ومع ذلك يبقى الظلم الواقع على (عزيزة) ليس من الواقع فحسب ولكن أيضا من القاص ، وكأنه كان يشعر هو الآخر بالحرج والضيق أن يتحدث عن صاحبة تلك الجريمة .

أو أن الحدث الذي قامت به عزيزة يعدل أحداث كل شخصيات الرواية ربما ، ولا نريد أن نجزم بشيء ، لأن النص الأدبي – كما يقولون – حمال أوجه ولا نريد أن نقف بالنص القصصي على رأي واحد .

المحور الثالث :

كان سعي أهل التفتيش لمعرفة القاتلة يعتمد على حاجة كل منهم إلى تبرئة نفسه ، فلم تكن فرحة أهل التفتيش بمعرفتهم القاتل إلاّ كفرحة المتهم حينما يسمع إعلان براءته . (١٢٧) (فلم يكن فيه حلا للغز الذي حيرهم فقط ، ولكن الحل أيضا على وجه مرض ، الحل كما أرادوه تماما وخافوا ألا يكون . حل بردت به صدورهم وهجعت به خواطرهم وأعاد لهم الثقة في أنفسهم وأخلاقهم ونسائهم وقيمهم تلك الثقة التي طالت حائرة مزعزعة تحوم حولها الشكوك وتتطاول عليها الألسن منذ اللحظة التي عثر فيها عبد المطلب على اللقيط) .

وإذا كان الرحيلة لا يقاسون بأدنى اهتمام من ناحية أهل التفتيش ولا يعيرونهم أدنى اكتراث ، فبعد الحادثة أصبح كل اهتمام أهل التفتيش منصبا على الرحيلة . (١٢٨) : (ذلك هو ما حدث فما كاد أهل العزبة يطمئنون على سلامة أنفسهم بدأوا يستديرون للغرابوة الذين كانوا يتحاشلون وجودهم إلى تلك اللحظة ويعيشون على أرض التفتيش يكاد لا يحس بهم إنسان ، بدأوا كلما داع حبر عزيزة ولقيطها وحكايتها يصبحون محط أنظار الناس ومحل اهتمامهم ولكن أي اهتمام ؟) .

كان اهتماما مشوبا بالاشمئزاز والقرف ، فهم وإن اهتموا بهم إلاّ أنه اهتمام بشيء تافه حقير لا قيمة له والاهتمام هنا يزيد ويضاعف من حقارة وتفاهة الشيء فهم – أهل التفتيش – نظروا إلى الرحيلة وهم موصومون بالعار ، لم خرج عزيزة من صفوفهم ؟! (١٢٨) . (الفلاحين الكبار والمزارعون لم يفعل الخبر أكثر من أن هيج كامن تقززهم من الغرابوة واشمئزازهم منهم ، فأصبح الحديث عنهم يسفه

أو يتبعه سيل من الشتائم والبصقات كأن الترحيلة في نظرهم حثالة آدمية تهبط على تفتيشهم مرة أو مرتين في العام كالوباء الذي لا مفر منه فما بلك حين يكتشفون أن تلك الحثالة قد صدر عنها شيء حرام كهذا الذي حدث منذ أيام وأنها حاولت إخفاءه وإلصاقه بأهل بأهل العزبة . الترحيلة أنفسهم كانوا يكادون يصبحون شيئا حراما . وكأن الناس جميعا مخلوقات حلال وهم وحدهم مخلوقات حرام . أي بشاعة يصبح عليها الحرام إذا ارتكب حراما ؟ نساء الفلاحين هن الأخريات كان لهن مثل أراء أزواجهن وآبائهن بل أغرب من هذا كن أكثر حماسًا وأكثر تحاملاً وكأنهن يستكثرون على الترحيلة أن تحمل إحداهن مثلما يحملن وأن تلد مثلما يلدن ولو كان حملها وولادتها حرام في حرام) .

وأعطى القاص لهذا الحدث أكثر من بعد من خلال استعراض وجهات نظر أكثر من شخصية منفردة . وفي النهاية رؤية الجماعة لذلك الحدث ن فنظرة فكري أفندي لعزيزة ملؤها الإشفاق والرثاء للضعف والمهانة الإنسانية المتمثلة في عزيزة فقد تخيل أن عزيزة زوجته وأنه عبد الله زوجها المريض . (وفي إغفاءته رأى فكري أفندي نفسه نائما مع عزيزة تحت الظليلة والأنفار كلهم يتفرجون عليه وعليها وكان زوجها ببطنه المنتفخ واقفا ممسكا خطا مع الأنفار وكان هو الآخر يتفرج ولا يفعل شيئا أكثر من أن يقول : حرام عليك يا حضرة المأمور حرام عليك دي عيانة ... وأفاق فكري أفندي مختنقا وكأنه يعاني كابوس) .

ويستخدم القاص هنا وجهة النظر ليرصد بكل دقة هذا التحول الذي سيجتاح أهل التفتيش من الكره والاشمئزاز إلى التعاطف . ومن البعد إلى التقارب الذي يحدث بين الاثنين . ولم يكن القاص ليستطيع رصد هذا التغير في سلوك

الجماعة إلاَّ بتبنيه وجهة النظر تلك " إن إحدى خصائص هذه الرواية وغيرها من أعمال يوسف إدريس أنا نرى الحدث ورد الفعل لا من وجهة نظر فردية فحسب بل من وجهة نظر جماعية أيضا . فقصة المرأة البائسة المعذبة عزيزة بل حياة الرّحيلة كلها . لا نرى من وجهة نظر فكري أفندي أو غيره من أهل النفيش فحسب ، بل نرى القرية كلها بأطفالها ثم رجالها ونسائها وهم يتحولون أمام عيوبا من احتقار وكره وغضب تجاه الرّحيلة إلى التفهم والحب والتعاطف "(١).

وبدأ موقفهم من عزيزة يتغير تغيرا كاملا فبعد أن كانوا ينظرون إليها نظرتهم إلى شيء يدور في فلك الحرام . متخم بكل معاني العار والحرج . بدأوا يشفقون ويرثون لها ن بل امتدت أيديهم إلى عزيزة لمساعدتها . وانتقل موقفهم من عزيزة إلى الغرابوة . ولكن هذا التغيير لم يحدث إلا عندما رأوا عزيزة في حضم سكرات الموت . وكأن لحظات الضعف الإنساني تجمع بين الإنسان والإنسان(١٥٨) .

(غير أن عزيزة حين بدأت تخرف وتصرح صرخاتها المحمومة ويخف إليها بلدياتها يحادثونها ويصبرونها ويهدهدون عليها وكأنها واعية عاقلة مدركة مما تقول . حين بدأت تفعل هذا ن بدأ الجمود يدوب . وبدأت ألسنة المتفرجين من أهل العزبة تنطلق وتتحدث مع الغرابوة وتشارك بكلمة عطف أو بمصمصة شفة ثم تجر الكلمة كلمات ويبدأ حديث بين الرجال والرجال . وبين النساء والنساء ولكن عزيزة بعد ثلاثة أيام من رقادها بدأت تتشنج يتخشب جسدها حتى يصبح جافا مشدودا كالعصا وتعض لسانها حتى تدميه وكان أهل العزبة حينئذ

١-(وجهة النظر في الرواية المصرية) د . إنجيل بطرس سمعان – مجلة فصول – المجلد الثاني – العدد الثاني لسنة ١٩٨٢- صفحة (١١٤) .

لا يستطيعون أن يتمالكوا أنفسهم أمام منظرها فيسرعون مثلهم في هذا مثل بلدياتها الترحيلة ويتعاونون في فتح فمها وتدليك جسدها وتنشيقها بماء البصل) .

الشخصية المصرية والبعد الثالث :

ونجح القاص هنا أن يرصد ويلتقط ملمحا من ملامح الشخصية المصرية في أعماق الريف المصري . وهذا ملمح حضاري احتفظت به الشخصية المصرية في أحلك لحظاتها التاريخية . وهو – الملمح – من أخص خصوصيات الشخصية وهو أن يهم الجميع لنجدة فرد من أفراده متناسين ما بينهم من خلافات وأحقاد متناسين كل شيء إلاَّ ما يدفعهم لنجدته . وهو ما نسميه في الريف (بالواجب) فحينما رأي أهل التفتيش ما تعانيه عزيزة هموا لنجدتها والتحموا بالغرابوة فالشخصية في ذلك الزمان والمكان بسيطة جدًا . ولكن تلك البساطة تخفي تحتها كما هائلا من رصيد حضاري . الذي لا تظهره إلاَّ الأزمة أو المواقف الصعبة . هذا الرصيد الحضاري ليس محصلة تجربة فردية في زمان محدد أو مكان معلوم . وإنما محصلة أجيال طويلة . يعيش في ضمير الأمة . فهو إحساس فطري يدفع صاحبه بدون تفكير وبدون وعي إلى أن يفعل هذا الفعل . هذا الدافع والوازع الفطري هو الذي دفع أفراد أهل التفتيش وجماعته أن يغيروا مواقفهم من عزيزة والغرابوة واستطاع القاص بذلك أن يحقق البعد الثالث كما يقول الدكتور ركي نجيب محمود " إن القاص في رسمه لأشخاصه إذا ما كشف خلال سلوك الأشخاص عن المعايير الدفينة لكل سلوك فإنما يبلغ بهذا بعدًا ثالثا . وبذلك تتكامل لخلقه الفني أبعاده الثلاثة . فكثيرة من

حوادث أولا ، وإطار نفسي يضمها في شخص واحد ثانيا ، وأساس أولي عميق تبنى عليه كل تفصيلات الحياة ثالثا " (١).

وهذا هو عماد العمل الأدبي الصادق ، أن يجلي القاص من خلال كم الأحداث والمواقف جوهر الإنسان الذي يعيش في بيئته ويزيح ما ران على وجه من غشاوة ، يكشف أصالة وعمق ووعي والسمات الحضارية التي تميز الشخصية المصرية عن بقية الشخصيات في أي مكان في العالم ، ولا تشغل القاص كثرة الأحداث والمواقف على أن يردها إلى مصدرها الرئيسي ومنبعها الأساسي .

" لأن البطولة ليست بطولة الأحداث ، فالأحداث ما أسهل أن يأتيها على أيدي القصاص والشعراء هذا أو ذاك من عامة الناس . وإنما الموهبة الفذة بحق هي تلك التي تطلق الأحداث بين يديها بالأغوار النفسية والأبعاد الحضارية التي تنقل إلينا أبطال الرومانسية والواقعية على اختلاف مذاهبها ، لا يقف خلودهم عند حد التحليل النفسي . وإنما يجمع إليه البعد الحضاري لبيئته وبيئة قومه ولا يمكن الخلط مثلا بين ديكنز وجوركي في أبطالهما وهم جميعا من نماذج المجتمع وأحلاس الأزقة والشوارع لأننا نحس بكل له منحاه في السرد وملامحه الخاصة في الغوص " (٢).

فعلاقة الإنسان المصري بغيره ليست علاقات جامدة ، وإنما في تذبذب مستمر وتغير ، من البعد إلى القرب ، من الكره إلى الحب ، ذلك لأنها موصولة بهذا الجوهر الكامن في أعماقه إبراهيم ، وهذا الجوهر الإنساني يفرض سلطانه على تلك

١- فلسفة النقد – د. زكي نجيب محمود – صفحة (١٠٥).
٢- جوانب من قضايا الأمة العربية – د. حلمي علي مرزوق – صفحة (٨٨).

العلاقات . ويملي عليها أحكامه . وكلها أحكام شاخصة إلى تعضيد وتأكيد صفة الإنسانية . حيث كادت أن تنسى من كثرة ما مر بالإنسان من تجارب ومواقف مؤلمة تنسي أول ما تنسيه تلك الصفة التي تحفظ عليه كيانه وكرامته ووجوده الإنساني . وها قد جمع المصاب بين فئتين من الناس كان البعد والكره حجازا بينهما . فبعد موت عزيزة أسرع أهل العزبة نساؤهم ورجالهم لتعزية الترحيلة (١٦٨) : (أما رجال الترحيلة فقد جلسوا غير بعيد في مقدمة الجرن يتقبلون عزاء رجال التفتيش وقد اختلطت العمم بالعمم والجلاليب بالجلاليب . فلم تعد تستطيع أن تميز الفلاح من الترحيلة ولا صاحب المأتم من المعزي بينما الشيخ أبو إبراهيم الفقي قد احتل دكة النواح الواقعة على رقية قمح نصف مدروس ومضى يتلو بصوته الأجش المبحوح بعض ما تيسر من سورة النساء . وشعاع الشمس يحمر ويغيب خلف جبل التبن الهائل المتخلف عن دراس المكنة) .

ويحرص المأمور بعد ذلك على أن تدفن عزيزة في بلدها ويدعو الأسطى عبده ليحمل عزيزة في اللوري ليذهب بها إلى بلدتها . ويغادر جسمان عزيزة أرض التفتيش مشيعا ببكاء ونهنهات النساء ونظرات وعبرات الرجال .

ولم تشغل كثرة تفاصيل الرواية القاص على أن ينتقي منها ما له دلالة ومعزى بعيد ن وهو وإن كان حاضرا في كل وقت ومع كل حديث إلاَّ أن هذا الحضور لم يفسد موضوعية الرواية . فهو لم يقحم نفسه إقحاما ولكنه كان موجودًا ليرشد الحدث القصصي من خلال وجهة نظره المتجانسة مع العمل الأدبي ككل " توظف الحدث بتفاصيله الرقيقة الملموسة للكشف عن المشاعر والأفكار والمواقف وجمع

الأعمال التي قام بها أهل النفتيش لمساعدة عزيزة المسكينة والأجر الذي يدفع لها ويدفع لجارتها التي تعني بها في أثناء مرضها والماء الذي يوفرونه لشربها والطعام الذي يرسلونه إليها وذلك المشهد المقلق لحوار الخليج ولحفلة الوداع الحزينة كلها أدوات وأساليب (وجهة النظر) التي برع إدريس مثير في استخدامها " [1].

---

[1] - وجهة نظر في الرواية المصرية - د. انجيل بطرس سمعان – صفحة (١٠٩)